□ عُلُوُّ الهِمَّة في التهذيبِ والتصْفِيَة □

قال ابن القيِّم عن هذه المنزلة من منازل العبودية : « هو سبْك العبودية في كِيرِ الامتحان ، طلبًا لإخراج ما فيها من الخبَث والغشِّ ، وهو صعب على المبتدِئ ؛ فهو له كالمحنة ، وطريقة للمرْتاض الذي قد مرَّن نفسه ، حتى اعتادت قبوله وانقادت إليه » .

درجاتُ التهذيبِ والتصْفِيَة :

قال صاحبُ « المنازل » شيخ الإسلام الهرويُّ الأنصاريُّ : وهو على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : تهذيبُ الخِدْمَة ؛ أنْ لا يخالجها جَهَالةٌ ، ولا يَشُوبها عادة ، ولا يقف عندها هِمَّة** » :

قال ابن القيم شارِحًا ومبيِّنًا هذه الدرجة : « أي : تخليص العبودية وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة ، وهي : مخالجة الجهالة ، وشوْب العادة ، ووقوفُ همَّةِ الطالب عندها .

النوع الأول : مخالجة الجهالة :

فإن الجهالة متى خالطتِ العبودية ، أوردها العبد غيرَ موْردها ، ووضعها في غير موضعها،وفعَلَها في غير مستحقِّها ، وفعَل أفعالًا يعتقد أنها صلاح ، وهي إفساد لخدمته وعبوديته ، بأن يتحرَّك في موضع السكون ، أو يسكن في موضع التحرُّك ، أو يفرِّق في موضع جمْع ، أو يجمع في موضع فرْق ، أو يطير في موضع سفوف ، أو يُسفَّ في موضع طيران ، أو يُقْدِمَ في موْضِع إحجام ،

أو يُحْجِم في موضع إقدام.، أو يتقدَّم في موضع وُقوف ، أو يقف في موضع تقدُّم ، ونحو ذلك من الحركات التي هي حقُّ الخدمة ، كحركات الثقيل البغيض في حقوق الناس .

فالخدمة ما لم يصحبْها علْمٌ ثانٍ بآدابها وحقوقها ، غير العلم بها نفسِها ؛ كانت مظنَّةَ أنْ تُبعِدَ صاحبَها ، وإنْ كان مراده بها التقرُّب . ولا يلزم حُبوط ثوابها وأجْرها ، فهي إنْ لم تُبعده عن الأجر والثواب ، أبعدتْه عن المنزلة والقرْبة ، ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلَّا بمعرفةٍ خاصَّة بالله وأمْره ، ومحبَّة تامَّةٍ له ، ومعرفةٍ بالنفس وما منها .

النوْع الثاني : شوْب العادة :

وهو أن يُمازِج العبوديةَ حكمٌ من أحكام عوائد النفس تكون مُنْفِذة لها ، مُعينة عليها ، وصاحبها يعتقدها قُرْبةً وطاعةً ، كَمَنِ اعتاد الصوم - مثلًا - وتمرَّن عليه ، فألِفَتْه النفس ، وصار لها عادة تتقاضاها أشدَّ اقتضاء ، فيظنّ أن هذا التقاضي محضُ العبودية ، وإنما هو تقاضي العادة ؛ وعلامةُ هذا : أنه إذا عَرَض عليها طاعة دون ذلك وأيسر منه وأتمَّ مصلحة ؛ لم تُؤْثِرها إيثارها لِمَا اعتادته وألِفَتْه ، كما حُكِي عن بعض الصالحين قال : حَجَجْتُ كذا وكذا حَجَّة على التجريد ، فبان لي أنَّ جميع ذلك كان مشوبًا بحظِّي ؛ وذلك : أن والدتي سألتني أن أستقى لها جَرْعةَ ماء،فثقل ذلك على نفسي ، فعلمتُ أن مطاوعة نفسي في الحجَّات كان بحظِّ نفسي وإرادتها ، إذْ لو كانت نفسي فانية ، لم يَصعُبْ عليها ما هو حقُّ الشرع .

النوع الثالث : وقوفُ هِمَّته عند الخدمة :

وذلك علامةُ ضعْفها وقصورها ؛ فإنَّ العبد المحْض لا تقفُ هِمَّته عند خدمة ، بل هِمَّته أعلى من ذلك ؛ إذْ هي طالبة لرضا مخدومه ، فهو دائمًا مستصغِرٌ خدمته له ، ليس واقفًا عندها ، والقناعة تُحمَد مِن صاحبها إلَّا في هذا الموْضع ، فإنها عيْن الحرمان ، فالمحبُّ لا يقنع بشيءٍ دون محبوبه ، فوقوف

هِمَّةِ العبد مع خدمتها وأجرتها : سقوط فيها وحرمان »[١] .

« الدرجة الثانية : تهذيبُ الحال ؛ وهو أنْ لا يَجْنح الحالُ إلى عِلْم ، ولا يخضع لرَسْمٍ ، ولا يلتفت إلى حظٍّ » :

قال ابنُ القيِّم شارحًا وموضِّحًا للمبهَمَات من الألفاظ : « أمَّا (جُنوح الحال إلى العلم) ؛ فهو نوعان : ممدوح ، ومذموم ؛ فالممدوح : التفاته إليه ، وإصغاؤه إلى ما يأمر به ، وتحكيمه عليه . فمتى لم يجنحْ إليه هذا الجنوح ، كان حالًا مذمومًا ناقصًا مبعِدًا عن الله ، فإنَّ كلَّ حال لا يصحبه علم : يُخاف عليه أن يكون من خدَع الشيطان . وهذا القدْر هو الذي أفسد على أرباب الأحوال أحوالهم ، وعلى أهل الثغور ثغورَهم ، وشرَّدهم عن الله كلَّ مشردٍ ، وطردهم عنه كلَّ مطردٍ ، حيث لم يحكِّموا عليه العلمَ ، وأعرضوا عنه صفْحًا ، حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان وشرائع الإسلام .

وهم الذين قال فيهم سيِّد الطائفة الجُنَيْد بن محمد ، لمَّا قيل له : أهل المعرفة يَصلُون إلى ترْك الحركات من باب البر والتقرُّب إلى الله ؟ فقال الجنيد : إن هذا كلام قومٍ تكلَّموا بإسقاط الأعمال عن الجوارح ، وهو عندي عظيمة ، والذي يزني ويسرق أحسنُ حالًا من الذي يقول هذا ؛ فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عام ، لم أُنقص من أعمال البرِّ ذرَّةً ؛ إلَّا أن يُحَال بي دونها .

وقال : الطُّرق كلُّها مسدودة على الخلْق ، إلَّا مَنِ اقتفىٰ أثَر الرسول ﷺ .

وقال : مَن لم يحفظِ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدىٰ به في طريقنا هذا ؛ لأن طريقنا وعلْمنا مقيَّد بالكتاب والسنة .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩٨ - ٩٩ .

وقال : عِلْمنا هذا مشيَّد بحديث رسول الله ﷺ .

والبليَّة التي عرضتْ لهؤلاء : أنَّ أحكام العلْم تتعلَّق بالعلْم وتدعو إليه ، وأحكام الحال تتعلَّق بالكشْف ، وصاحب الحال تردُ عليه أمورٌ ليست في طَوْر العلم ، فإنْ أقام عليها ميزانَ العلم ومعيارَه ، تعارَضَ عنده العلمُ والحال ، فلم يجد بُدًّا من الحكْم على أحدهما بالإبطال . فمَن حصلت له أحوال الكشْف ، ثم جنَحَ إلى أحكام العلْم ، فقد رجَعَ القهقرَىٰ ، وتأخَّر في سيره إلى وراء .

فتأمَّلْ هذا الوارد ، وهذه الشبهة التي هي سمٌّ ناقع : تُخرج صاحبها من المعرفة والدين،كإخراج الشعْرة من العجين .

واعلمْ أن هذه المعرفة الصحيحة هي رُوح العلم ، والحالُ الصحيح هو روح العمَل المستقيم ، فكلُّ حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقًا للعلم : فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة ، ولا يُنكر أنْ يكون لهذه الروح أحوال ، لكن الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها ، فمتى عارَض الحالَ حكْمٌ من أحكام العلم فذلك الحال إمَّا فاسد ، وإمَّا ناقص ، ولا يكون مستقيمًا أبدًا .

فالعلم الصحيح والعمل المستقيم : هما ميزانُ المعرفة الصحيحة والحال الصحيح ، وهما كالبدَنَيْن لرُوحَيْهما .

فأحسن ما يُحمَل عليه قولُه : « أن لا يَجْنَح الحالُ إلى العلم » : أنَّ العلم يدعو إلى التفرقة دائمًا ، والحالُ يدعو إلى الجمعيَّة ، والقلب بين هذيْن الداعيَيْن ، فهو يُجيب هذا مرةً وهذا مرةً .

فتهذيبُ الحال وتصفيتُه : أن يُجيب داعيَ الحال لا داعيَ العلم ، ولا يلزم من هذا إعراضُه عنِ العلم ، وعدَمُ تحكيمه والتسليم له ، بل هو متعبِّد

بالعلم ، محكَّمٌ له ، مستسلم له ، غيرُ مجيب لداعيه من التفْرقة ، آخذ من العلم ما يصحِّح له حالَه وجمعيَّته ، غيرُ مستغرقٍ فيه استغراقَ مَن هو مُطَّرِحٌ هِمَّته وغاية مقصده ، لا مطلوبَ له سواه ، ولا مرادَ له إلَّا إيَّاه . فالعلم عنده آلةٌ ووسيلة ، وطريقٌ توصِّله إلى مقصده ومطلوبه ، فهو كالدليل بين يديْه ، يدعوه إلى الطريق ويدلُّه عليها ، فهو يُجيب داعِيَه للدلالة ومعرفةِ الطريق . وما في قلبه من ملاحظة مقصده ، ومطلبه من سيْره وسفره ، وباعثُ هِمَّته على الخروج من أوطانه ومربَّاه ومن بين أصحابه وخُلَطائه ، الحامل له على الاغتراب والتفرُّد في طريق الطلب - هو المسيِّر له والمحرِّك والباعث ، فلا يجنح عن داعيه إلى اشتغاله بجزئيَّات أحوال الدليل ، وما هو خارج عن دلالته على طريقه .

فهذا مقصد شيخ الإسلام - إن شاء الله تعالى - لا الوجه الأول . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولا يخضع لرَسْمٍ :

وأما قوله : « ولا يخضع لرسمٍ » : أي لا يستولي على قلبه شيء من الكائنات ؛ بحيث يخضع له قلبه ؛ فإنَّ صاحب الحال إنما يطلب الحيَّ القيُّوم ، فلا ينبغي له أنْ يقفَ عند المَعَاهد والرُّسوم .

ولا يلتفت إلى حظٍّ :

وأما قوله : « ولا يلتفت إلى حظٍّ » : أي إذا حصَل له الحال التامُّ ، لم يشتغل بفرحه به وحظِّه منه واستلذاذه ؛ فإن ذلك حظٌّ من حظوظ النفْس ، وبقيَّة من بقاياها »[1] .

« الدرجة الثالثة : تهذيبُ القصْد ؛ وهو تصفيتُه مِن ذُلِّ الإكراه ، وتحفُّظه مِن مرضِ الفُتور ، ونُصْرته على منازَعَات العلْم » :

قال ابن القيِّم : « هذه أيضًا ثلاثة أشياء تُهذِّب قصدَه وتصفِّيه :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩٩ - ١٠١ .

أحدها : « تصفيتُه من ذلِّ الإكراه » : أي لا يسوق نفسَه إلى الله كرهًا كا لأجير المسخَّر المكلَّف ، بل تكون دواعي قلبه وجواذِبُه منساقة إلى الله طوْعًا ومحبَّةً وإيثارًا ، كجريان الماء في منحدره ، وهذه حال المحبِّين الصادقين ، فإن عبادتهم طوْعًا ومحبَّة ورضًا ، ففيها قرَّة عُيونهم وسرور قلوبهم ، ولَذَّة أرواحهم ، كما قال النبي ﷺ : « وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة » . وكان يقول : « يا بلال ، أرحنا بالصلاة » . فقرة عيْن المُحِبِّ ولذَّته ونعيم رُوحه في طاعة محبوبه ، بخلاف المطيع كرهًا ، المتحمِّل للخدمة ثِقلًا .

وفي قوله : « ذلّ الإكراه » لطيفةٌ ؛ وهي أنَّ المطيع كرهًا يرى أنه لولا ذلُّ قهْره وعقوبة سيِّده له ، لَمَا أطاعه ، فهو يتحمَّل طاعته كالمكره الذي قد أذلَّه مُكْرِهُهُ وقاهِرُه ، بخلاف المحبِّ الذي يعدُّ طاعة محبوبه قوَّة ونعيمًا ولذَّةً وسُرورًا ، فهذا ليس الحامِل له ذلُّ الإكراه .

الثاني : « تحفُّظُه من مَرَض الفتوْر » : أي توقِّيه من مَرَض فُتور قصده ، وخمود نار طلَبِه ؛ فإن العزم هو روح القصد ، ونشاطه كالصحَّة له ، وفتوره مرض من أمراضه ، فتهذيب قصْده وتصفيته : بحِمْيَته من أسباب هذا المرض الذي هو فتوره ، وإنما يتحفَّظ منه بالحِمْية من أسبابه وهو أن يلهو عن الفضول من كلِّ شيء ، ويحرِص على ترْك ما لا يعنيه ، ولا يتكلّم إلّا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله ، ولا يصحب إلَّا مَن يُعينه على ذلك ، فإنْ بُلي بمَن لا يُعينه ، فلْيدرأْه عنه ما استطاع ويدفعه دفْعَ الصائل .

الثالث : « نصرة قصده على منازعات العلم » : ومعنى ذلك نصرة خاطر العبودية المحْضة ، والجمعيَّة فيها والإقبال على الله فيها بكليَّة القلب ، على جواذب العلم ، والفكرة في دقائقه وتفاريع مسائله وفَضَلاته .

فتهذيب القصْد وتجريدُه : أن قصده وعبوديته محبَّةٌ لله بلا علَّة ، وأن

لا يحبَّ الله لِمَا يُعطيه ويحميه منه ، فتكون محبَّته لله محبَّةَ الوسائل ، ومحبَّته بالقصد الأول لِمَا يَناله من الثواب المخلوق ، فهو المحبوب له بالذَّات ، بحيث إذا حصل له محبوبه تسلَّى به عن محبة من أعطاه إيَّاه ، فإن من أحبَّك لأمرٍ وَالَاك عند حصوله ، ومَلَّكَ عند انقضائه »(١) .

فلا يجعل محبوبه تعالىٰ وسيلةً له إلى غيره ، بل يجعل ما سواه وسيلةً له إلى محبوبه .

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/١٠٢ - ١٠٣ .